الشمس السوداء

قصة بقلم/ برهان الخطيب ـ موسكو ـ

احتمت السيارة تحت ظلال شجرة صفصاف ليست كبيرة ولكن ظلالها تخيم كعباءة واسعة تكفي لتغطية عديد من الاشخاص. سيمر من هنا خلال ربع الساعة القادم . والوقوف هنا اجدى من الذهاب والاياب في عرض الطرقات . لا شيء مشترك مع اسوداد الليل في الخارج غير هذا الصمت المشحون بالتوقع . ترك « ن » محرك السيارة يدور ورفعت يده زجاجة عطر صغيرة من نوع « جمال الروح » وقال وهو يفتحها ويدلق ما فيها على راسه كالمطر :

- غريب ! كيف تمكنت فعل ذلك معها ؟

الى جانبه في المقعد الاساسي يجلس « ع » صامتا منذ اكثر من ساعة . صحيح انه تبادل بضع كلمات مع « ن » ولكنه ظل دائما شارد الذهن يفكر فيما سيفعله الليلة هذه . ولذلك عندما جاءه سؤال « ن » بقي ساكنا يحدق عبر نافذة السيارة كانه لم يسمع . الا انه دمدم اخيرا دون الالتفات الى داخل السيارة :

- اقذف بهذا الحذاء الى الخارج بسرعة .

سد « ن » فوهة الزجاجة ثم خضها بيده وتطلع الى الفقاعات وهي تتفقع واحدة بعد اخرى . ثم انزل زجاج نافذته ورمى بها الى الخارج قائلا فيما يشبه التحسر :

- العطور تنعش الارواح ونبيك محمد احب العطور فما بالك لا تقدر عطر « باكيزة » !

وبعد فترة صمت قصيرة لم يتحمل « ن » الصمت اكثر فقال وهو يضع يده على ذراع تبديل السرعة ويواصل النظر الى الامام :

- تصور باكيزة تصبح هكذا من يصدق ! .. كانت مثل الوردة والان ما عرفتها وحق السماوات ، اهكذا تفعل الحشيشة !

والتفت نحو « ع » وشبه ابتسامة على شفتيه :

- ما رايك لو جربناها يوما . اتراها تنفع ؟

ومن غير ان يلتفت « ع » رد بصوت كدر :

- يكفي اكل خراء .

فتح « ن » فمه كمن يستسلم . وواصل البحث بعينيه في ظلام الخارج . ولم تمر غير دقائق معدودة حتى مد يده وعبث بمفتاح الراديو فارتمى ضوء اخضر على الوجوه وبدا الحاضرون جميعا كانهم يمارسون طقوسا سحرية غريبة يشارك فيها الليل في الخارج بصمت الشوارع وغياب الكائنات واعتكافهم في المنازل . تصاعد في هدوء السيارة صوت مذيع يقرأ تعليقا سياسيا حول فلسطين والعمليات الفدائية فالتفت « ع » لاول مرة منذ توقفت السيارة تحت ظلال شجرة الصفصاف وقال بلهجة حاسمة :

- اغلق الراديو .

مد « ن » يده واغلق الراديو .

الصمت ثانية .. ثقيلا على الرغم من استمرار محرك السيارة في هديره المكتوم .

لا احد يعبر في الشارع الليلي . الشارع يمتد تحت حراسة شديدة هي ضوء المصابيح المعلقة اعلى الاعمدة الكهربائية . والاعمدة تنتصب كمثرات الحراس الليليين العمالقة . خلال العشرة دقائق القادمة سيمر من هنا حتما، سيعبر الشارع ، سيصعد الرصيف ، ثم يتغلغل بين البيوت ..

قال « ع » دون ان يسحب نظرته من الخارج:

- كن على حذر . ما ان يهبط الرصيف تحرك كما لو كنت تواصل السير . ولكن اذا لم تستطع اللحاق فتوقف مباشرة . حاول ان لا تشحط الاطارات . مفهوم ؟

« ن » يمسك بذراع تغيير السرعة ويهز راسه مفهما بالايجاب ، عيناه تتنقلان بين ظلمة الليل في الخارج وظلمة السيارة الكثيفة ـ « ع » طلب ان تطفأ السكائر جميعا ـ والضوء المنبعث من لوحة قياس السرعة كان يرتمي على الاقدام والسيقان وحسب . قال « ن » :

- رغم ذلك ، الا تجد من الاصلح ان نركبه السيارة اولا ثم ناخذه بعيدا وننهي المسالة هناك ؟

« ع » قال بهدوء ملغم :

- من سابع المستحيلات اجباره على الركوب.

الصمت .

« ن » مرة اخرى :

- طيب ، واذا لم يكن لوحده ؟

لا جواب . « ع » يتوجه بكل حواسه الى الخارج . « هل هو البرد الذي يحبس الناس في بيوتهم ام انه الليل الذي لا تميز قدم فيه خطو ! » اسفلت الشارع مبلل برذاذ المطر ، يلتمع كنصل عار تحت صف المصابيح الطويل. واللحظات اكثر بطءا من تساقط قطرات الماء المتجمعة في نهايات اغصان شجرة الصفصاف على زجاج السيارة . متى يجيء !

من لا مكان اخذ صوت ناعم في الارتفاع ..

« نحن والقمر جيران .. » فيروز تغني . هتف « ع » مغضبا :

- قلت لك اترك هذا الخراء !

مد « ن » يده وادار مفتاح الراديو مره اخرى :

- نسيت وفتحته .

وانطفأ الصوت ..

الصمت . الليل . الشارع . السكون . لا احد يجيء ..

- الم تخف من مرض تنقله اليك باكيزه ؟

اجاب « ع » هذه المره ، ومن غير ان يلتفت ايضا :

- الى جهنم بكل حياة فيها خوف .

وقرب « ن » راسه قليلا من نافذه السياره الامامية :

- الا تراه هو قادما ؟

ضيق « ع » فتحتي عينيه :

- لا . هو اطول قامة . ولا يمشي هكذا ..

جفل « ن » فجاة وارتعش كتفاه ، راسه ايضا ، ساله « ع » ملتفتا اليه :

- ماذا ؟

- .. البرد . عجيب ، الدنيا ما تزال باردة .

وسارع الى زجاج النافذه الجانبيه لصفه فرفعه متعجلا .

وظل التوقع مسيطرا ، عميقا ، متصلا ، طويلا . و .. اضاف « ن » :

- الضفادع لم تستطع الصبر هذا العام . الربيع بعده ما جاء وهي بادئة في النقيق ..

فاعقب « ع » متهكما ، عيناه تجوسان ليل الخارج :

- وتلومني !

رد « ن » عليه التهكم بلوم اخر :

- ولكنك متزوج من امراة تعدل راسك .

قاطعه « ع » بصوته النكد :

- يكفي .. شريف اخر زمن !

وهتف « ن » فجاة همسا :

- جاء !

فاطبقت اصابع « ع » الضخمة على قبضة « ن » الممسكة باكرة ذراع تغيير السرعة ـ في الخارج ليس غير الليل وعابر سبيل يمضي بين غدران المياه المنتشرة امام البيوت على يسار الشارع المضاء بمخاريط الضوء البيضاء المدببة ـ قال بعد لحظة :

- سد حلقك واسكت ، اخر مرة اقولها لك. مفهوم ؟

لم يرد « ن » عليه شيء . فقط واصل الانتظار والتطلع نحو اتاه الساحة البعيدة ، وعابر السبيل ذاب بين اشباح البيوت ، واطئة السطوح ، قائمة على اليسار .. ساكنة ، جامدة ، جهماء ، لكانها هياكل مخلوقات غريبة منتصبة هكذا منذ الازل ، لا تتنفس ، ولكنها قادرة في انه لحظة على اطلاق احياء يملاون ساحات الليل بحركة الاقدام وبريق العيون . لا احد يجيء . ولكنه سيبرز من بين سجن الظلام ، حذرا كقط خبر سبر اغوار الليالي، حقيقيا كحكم صادر بالموت لا تغير فيه كل الشكوك شيئا ، حقيقيا سياسيا ، حقيقيا .. « ستنظر ملامح وجهه كما تتوقع ملامح وجهك في المراة . واذا ظلت عيناك تنظران الشوارع والساحات والبيوت محض رسوم مسطحة على ورق من الكرتون فان وجهه يبقى لوحده حقيقي في هذه الدنيا ، بله حقيقي اكثر من وجهك في المراة . فمتى ياتي لتمسك بذلك الحقيقي بين يديك.. ولو للحظة ؟ » ولكن ليس في العراء غير الليل مثل قلب هجرته لحظات اليقين والسعادة ، واسفلت الشارع الطويل ناتئ المصابيح العالية المنورة الالتماع والتوهج الا فوق اسوداده ! ..

نباح كلاب بعيد ياتي من وراء الافق كخواطر غامضة تهوم على تخوم العقل . وسيارات تمر على الطريق زاحفة كحشرات حديدية ، تقطع بهديرها مجرى الصمت وتمضي تاركة وراءها فراغا اجوف تدور فيه شتى التوقعات . خرج شخص ما من احد البيوت ، اطبق بابه الحديدي وراءه ، فتصاعدت ضجة قوية وانتشرت في سماء الليل الكامد .

« ن » لم يستطع الصبر اكثر ، قال وهو ينفث نفسا عميقا محتبسا في صدره :

- يا جماعه . الجوع يقتلني ما رايكم بهمبركر او تكة قبل العودة ؟

في الخارج ليس غير اسوداد الدنيا والتماع المصابيح الفضي على بلل الشارع والساحة والجسر القريب . والصمت « والمحرك يدور » ظل مخيما حتى رد « ع » بصوته الرجولي :

- سراب تحضر لنا العشاء

فاعقب « ن » وهو يجد في ذلك مناسبة للحديث . وعيناه ما يزالان متوجهتان الى الامام :

- هكذا الزوجات والا فلا ..

ولما لم يرد احد عليه اضاف مداعبا :

- كيف ، كيف استطعت ان تفعل مع باكيزة العدم ما فعلته !

- فعلته وكفى . ولو كانت جيفة ، كلبة ، لفعلت اكثر مما فعلته ، صار معلوم ؟.. كانما انت سيد الطاهرين !

- الاعزب لا يلام ولكن من عنده مثل سراب.

ولسبب ما اكفهرت ملامح « ع » اكثر من ذي قبل .

وتدحرج في الجو الساكن صوت اصطفاق باب اخرى ، رعد معدني اخطف الانتباه للحظة وظهرت امراة من حديقة بيت غير بعيد ، سارت بموازاة صف البيوت ، ثم ولجت احدها. كان المطر يعود وينقطع من حين الى اخر . وشجرة الصفصاف كانت تحتفظ بين اغصانها وعلى اوراقها ببضع قطرات ظلت تتساقط على زجاج السيارة الامامي ، كبيرة ممتلئة ، متمهلة ، تتوالى كانما تعد اللحظات والثواني .. سيحرك « ن » ماسحات المطر فيتلاشى هشيم القطرات دفعة واحدة ويعود الوضوح و ... بهدوء ، انحنى « ع » مادا ذراعه ، سيتناول رشاشته من بين قدميه كما يبدو ، وبذات الهدوء قال ايضا :

- لقد جاء .

زحف « ن » بالسيارة ببطء في البداية ، دون انتظار اشارة ، دون ضجة . ثبت عينيه في شبح الرجل القادم من جهة الجسر الموحد وتوجه اليه متخذا جانب المرور الايمن . كان مقدرا ان يعبر الرجل الشارع عند نقطة تفرعه

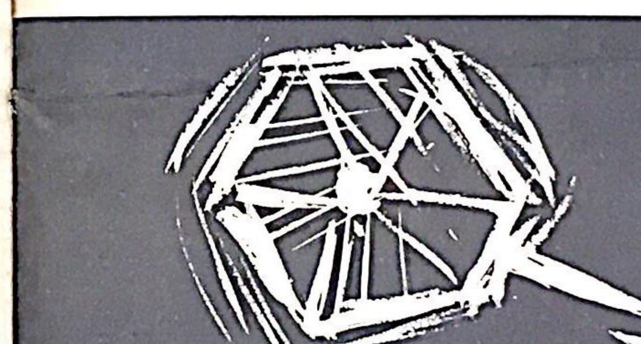

من الساحة ولذلك حافظ « ن » على سرعة بطيئة كما لو ان السيارة تحمل عاشقين غائبين في عالم اخر . وخلال هذا الوقت تناول « ع » رشاشته السوداء الصغيرة ووضعها على ركبتيه، فبدت اشبه بحيوان غاف بين احضان مدربه بانتظار استعراض جبروته وشراسته ... راحت السيارة تقترب والرجل اخذ في الهبوط من منحدر الجسر متوجها الى منطقة العبور . عجل « ن » سرعة السيارة قليلا .. الشارع خالي . الابواب موصدة . الليل خيمة كبيرة . لكن ضوء المصابيح جد شديد .

اقتربت السيارة . والرجل توقف على الرصيف . تلفت مرتين . وعندما راى السيارة قادمة امتنع عن العبور بانتظار مرورها كما يبدو « لو علم انها الليلة الاخيرة في حياته فما الذي تراه فعل الان ! »

وابطأ « ن » سرعة السيارة كثيرا ليفسح له مجالا للمرور . في هذه الاثناء فتح باب البيت المقابل للساحة وخرج الى الرصيف صبي يحمل بين يديه قناني حليب فارغة . الا ان الرجل ظل واقفا تحت عمود الضوء لا يبرح مكانه مخفيا يسراه في جيب معطفه ، وملامح وجهه تغرق تحت ظلال مظلة سوداء رفعها فوق راسه اتقاء رذاذ السماء الخفيف . اوشكت السيارة على التوقف تماما والرجل لا يريد العبور ، قال « ن » بصوت خفيض وبلهجة حاسمة :

- الدهس لن ينجح .

فامسك « ع » رشاشته بيده اليسرى وفتح باب السيارة بيمناه ، محنيا راسه ليخرج . وقال :

- لا يهم . كل شيء في مكانه . كل شيء في مكانه الان ..

وعندما لمح رجل المظلة السيارة تتوقف تماما رمى بقدمه الى الشارع وتوغل فيه دون الالتفات باتجاه السيارة ، مشى بضع خطوات واثقة مطمئنة . ثم .. فجاة .. اخترق السكون صوت اطلاق الرشاشة عنيفا شرسا متصلا كما لو ان يدين قويتين مزقا بغضب قطعة قماش قاتمة الحدة . وللحظة امتزجت صرخة رعب قوية اطلقها الصبي بصوت الاطلاقات، وبجنون توجهت فوهة الرشاشة التي يحملها « ع » نحو الصبي فاخرست صرخته . وارتفعت يد الرجل عاليا في الهواء كما لو انه يودع الحياة من هذه اللحظة ، الا انها وهي ترفع معها المظلة السوداء بدت تلك التحية غير مفهومة على الاطلاق ، بل غاية في الضحك . ولم يخط الرجل اكثر من منتصف الشارع اذ تصلب جسده كالقوس تماما ثم هوى دفعة واحدة كما تهوى الاشجار . ولسبب ما ، استدار قليلا قبل ان يسقط على الارض ، فتلقت الارض منه اول ما تلقته راسه كان شارعها افسح ذراعا هائلة يسعد لايواء جميع من يهجرون عالم البشر. توجه الرجل بوجهه الى اسفلت الشارع كمن من لم تكن تعنيه اي شيء سوى ان يهمس سر ما الى الارض او ان يشم رائحتها قبل مغادرته ورحيله . ولم ينتفض ، ولم يتحرك.. رقد بهدوء . وانحرفت مظلته مع الريح على ارضية الشارع .

وعندما عاد « ع » الى مقعد السيارة الامامي كانت رائحة البارود ما تزال منبعثة من رشاشته . اغلق الباب بقوة والقى بالرشاشة بين قدميه تماما كعاهرة انتهى لتوه من مضاجعتها.

وكان « ن » وهو ينطلق بالسيارة يعلق ابصاره بلآلئ كسرات الزجاج التي انتهت اليها قناني الحليب اذ افلتها الصبي من يديه وهو يرتمي على حافة الرصيف . ولما اصبحت السياره بعيدة التفت « ع » الى الخلف ملقيا نظرة، فالفى انه قد ترك وراءه الى جانب جثة الرجل « اضطجعت الجثة على الارض كعلامة استفهام كبيرة ! » مظلته وهي تنفتح وسط الشارع كشمس سوداء ، مطفاة ، موحدة ، مهجورة، لا اشعة لها .. وكانت يد « ع » التي راحت تحاول تثبيت سيكارة بين شفتيه ترتجف . ترتجف بوضوح . فقال « ن » مخبرا الصمت بهدوء :

- ما بك ؟

ظل « ع » يتابع جريان الطريق تحت مجسي مصباحي السيارة الاماميين ويمتص دخان سيكارته بعمق . ثم قال اخيرا بصوت متورم وذهن شارد :

- البرد . الم تقل بان الدنيا باردة ؟ ..

بدا « ن » هذه المرة مقتنعا بالسكوت ، ولهجته متخثرة يائسة :

- والصبي ، لم فعلت ذلك بالصبي ! ..

الدخان ينبعث من « ع » كايذان بحريق يشب في الاعماق . امتص نفسا اخر من سيكارته واجاب مسلوبا وبلهجة عادية :

- لو كانت هناك امي في تلك اللحظة لقتلها ايضا .

وقبل ان تنعطف السيارة بطريق جانبيه التفت « ع » مرة اخرى الى الوراء فلمح « شمسه السوداء » تحرس في الشارع المتوحد الخالي جسد الرجل الذي انتهى الى جثة مرمية هناك كعلامة الاستفهام . و ... هتف بشيء من اللامبالاة :

- الان الى سراب .

ومضت السيارة ، من غير سرعة كبيرة ، في طريق يحدها من الجانبين حدائق بيوت ، ذات طابقين ، منكفئة على نفسها وكانها تتعمد غلق ابوابها امام الوجوه في هذا الليل الضاري . وراحت الظلال تتساقط على مقدمة السياره وتنسحب متراجعة الى الوراء كتقلب صفحات منسية من سجل قديم .. وقال « ن » :

- كان الافضل لو جمعنا اغلفة الطلقات .

فرد عليه « ع » مواصلا النظر الى الامام :

- لا يهم .

وبعد قليل :

- العطش يقتلني .

ومرت فترة صمت قصيرة قبل ان يعقب « ن » مفكرا ، مواصلا قيادة السيارة بانتباه :

- اما كان الافضل لو حملناه معنا في السيارة ثم رميناه بعيدا ؟ .. كانت الكلاب على الاقل او الذئاب فعلت به ما يمنع التعرف عليه .

- لديهم . سيقولون في الصباح : اغتيال سياسي ، او لعلهم يقولون : ثار قديم، سطو، قضية شرفيه ، ثم ينسون .

وسكت لحظات . ثم همهم كانما يحدث نفسه :

- العطش يقتلني ، يطيل مرة الان سوى الكائنات .. العطش ..

اخذ « ن » يدخن ايضا . وقال كما لو انه يواصل حديثا منقطعا ، والمقود يسيطر عليه بيد واحده :

- انت لم تر الصبي عندما اطحت به ظل متمسكا بقناني الحليب خشية اسقاطها حتى وقع معها على حافة الرصيف .. لا ادري . لم فعلت هذا به !

- ... ها ؟

- الصبي ، لم ضربته ؟

- كان المهم ان ننجح لا ان افكر بشيء اخر، لقد رآني بوضوح . اسرع قليلا العطش يقتلني.

- ولكن ما ذنبه !

- ... ها ؟

- اقول : الصبي ، ما ذنبه ؟

ذنبه انه شهد ما حدث

وواصل « ع » امتصاص سيكارته بقوة ، ويده ما تزال ترتجف وهي تنقل السيكارة الى شفتيه . وكان قد خفض قليلا زجاجة النافذة الجانبية الى جواره ليزيل رائحة البارود التي نشرتها الرشاشة في جو السيارة . الرشاشة مرمية بين الاقدام في قعر الحوض الامامي . جعل « ن » ينقل نظره بين « ع » والطريق الممتدة امامه ثم كرر بعد فترة :

- ما بك هذه المرة ترتجف هكذا ؟

فاجاب « ع » بنظرة واضحة كانما كان ينتظر مثل هذا السؤال :

- اعتقد اننا اخطانا الهدف .

رده صريح ، مباشر ، لا لبس فيه . مع ذلك استفسر « ن » بقلق خفي :

- ما الذي تعنيه ؟

- الم تشك بان الرجل ذا المظلة لم يكن صاحبنا الحقيقي ؟

- .. لا .. او ..!

- او ماذا ؟ .. اسرع بربك ، العطش يقتلني .

فتبر « ن » كمن فقد صبره :

- ما قضيتك هكذا عطشان كانك القتيل !

رد « ع » بلا اهتمام :

- وهل من فرق بين القاتل والمقتول !

ولم يفهم « ن » . وراح يشغل نفسه بقيادة السيارة على الطريق العشرة . فيما تساءل « ع » بعد برهة كالماخوذ :

- من تراه يكون ذلك الرجل الذي تركناه على اسفلت الشارع !

فتنحنح « ن » وفي محاولة للتخفيف عن صاحبه :

- لا يهم ، تعددت الاسباب والموت واحد .

ولم يكن « ع » يبدو مهتما لكل شيء سوى متابعة جريان افكاره الداخلية ، وحتى كلماته القليلة التي يبادلها مع « ن » بدا وكانه لفظها في الفراغ للفراغ ، كانما كان متاكدا من ان لا احد في الوجود اخذ يسمعه الان غير نفسه.

فعطف « ن » بقول اخر :

- لا يكفي . اما قيل « من لا يعمل يخطأ » .

الا ان « ع » قاطعه بلا اهتمام شارد الفكر والنظرة :

- لنعد اليه . اريد التاكد من كل شيء .

فلم يغير «ن» من سرعة السيارة او اتجاهها، بل قال :

- لا مبرر للمجازفة . ربما تراهم الان متجمعين حوله . في الصباح سيتضح كل شيء .

واحتج « ع » من غير ثقة :

- الان اريد التاكد الان من حقيقة ما فعلناه.

فسايره « ن » بلهجة مداهنة :

- لا باس . ولكن العودة الان بالسياره ورقمها ملطخ بالطين شر الشكوك حتما. انظر حتى اوصلك البيت ثم اعود لوحدي بالسياره الاخرى لاتحقق من الناس هناك ، اذا كانوا قد اقتربوا منه . صار ؟

« ع » لا يجيب. وضع يده على راسه وقال:

- عيناي توجعاني .

- تجد في انتظارك سراب تنسيك كل اوجاعك.

- وهل لسراب علاقة بالعيون والرؤية ، اكاد لا ارى !

- هذا طبيعي، فما فعلناه اليوم ليس لعبه.

- ما يقلقني انه يبدو لي هكذا .

استدارت السيارة في طريق جانبيه وعلى ضوء مصابيحها الامامية بدا البيت غارقا في ظلمة خفيفة . باب الحديقة الامامية مفتوح على ما يبدو واقاعي العنب العارية تلوى فوق العرائش كانها تحرس مدخل عالم لا علاقة له بعالم الاخرين . وعندما تباطأت السيارة قليلا هتف « ع » وهو يحدم :

- توقف قرب الكراج . ساذهب بنفسي . يجب ان اتاكد مما فعلت الان .

فرد عليه « ن » وهو يتمهل بالقيادة في محاولة لاقناعه بالعدول قبل التوقف :

- لا داعي لهذا الطيش . لا احد يرضى بهذا . في المرات السابقة كنت تفعل هذا ايضا ولكنك عمرك ما شغلت بالك بمن تكون الضحية ، كان حسبك ان يشيرون لك وكفى . فهل استوثقت انذاك بان احدا ما قد يخطيء بدوره !

« ع » يغمض عينيه كانما سلطت عليه عشرات الاضواء ويجيب ملاحق الانفاس كانه غريق يسعى للتشبث بكل ما يمكنه انقاذه :

- لا يهمني خطأ الاخرين ، بل يهمني ان لا اكون نفسي قد اخطات .

- ولكن الفعل واحد فما يهم من يخطأ في هذه الحالة

وكما لو ان « ع » يرفض الاستسلام . يؤكد :

- انت تعرف ان الفعل واحد ولكن النتائج ليست واحده .

فرد « ن » منشغلا باختيار مكانا للوقوف :

- بالنسبة للاخرين ليست واحدة ، لكنها واحدة بالنسبة لي ولك .

وقبل ان يوقف « ن » السيارة بحذاء سياج الحديقة ظهرت سراب يتبعها ابنها متمسكا باذيال ثوبها وبيده الاخرى يحمل عصا صغيرة. ولم يهدأ «ع » ولم تخمد جمرة السكارة امام شفتيه لحظة واحدة . ودمدم محموما :

- يجب ان اتاكد ، يجب ان احصل على اليقين .

فقاطعه « ن » وهو يوقف السيارة :

- انت مضطرب الان والافضل ان ترتاح قليلا.

وفتح له الباب ليعينه على النزول ، الا ان الصغير جاء واعترض طريق والده ، هاتفا بقوة وهو يشهر عصاه كالبندقية بوجهه :

- هانذاب !!!

فرفع « ع » يديه الى الاعلى قليلا كمن يستسلم . وظل لفترة طويلة ينظر نحو ولده بتامل سادر . ثم بدت على شفتيه ابتسامة متعبة ، مهزومة هازله . ولم يظل رفع يديه الى الاعلى كثيرا اذ خفضهما مرتبكا ، ومد يمناه فانتزع من ابنه عصاه الصغيرة وركنها الى جانبه ببطء وهدوء ثم سحب طفله الى صدره. على وجه الصغير تبدو علائم الغضب والانزعاج..

هذا الرسم الجديد للحرف العربي

منذ فترة ليست بالقصيرة كان ثمة شاعر عراقي مبدع لم نقرأ له شيئا جديدا .. تساءلنا عن اسباب هذا الصمت ، ثم عرفنا انه كان منهمكا بتجربة تحدث عنها الكثيرون قبله ، ولم يتوصلوا الى اكثر من الحديث .

هذه القضية هي « الحرف العربي » . وصل الامر بالبعض الى المطالبة بالغاء الحرف العربي واستعمال الحرف اللاتيني .

قالوا .. الاجهزة الالكترونية لا تستوعب الحرف العربي لكثرته .

وقالوا انه معقد الكتابة والتشكيل .

ويبدو ان ذلك الشاعر العراقي كان يعرف وحده انها مجرد ثرثرة .. هذا الشاعر هو محمد سعيد الصكار . فلقد اعلن قبل ايام عن تجربته التي سجلها قبل شهور في باريس . هذه التجربة اختصرت الابجدية وحافظت على الحرف العربي ورسمته من جديد بحس عربي اخاذ .

ننشر كلمة صفحة ادب لجريدة الثورة العربية بتاريخ ١٩٧٣/٢/١ مع تهنئة صفحة ثقافة وادب للشاعر المبدع الصكار .

ليس سهلا ان نطرح صيغة في رسم الحرف العربي ، اهم ما تنطوي عليه تجاوز الصعوبات التي اثرت ايما تأثير على طباعة النص العربي ، بشكل سهل ، ومنسجم مع متطلبات صناعة الكتاب ، ومع متطلبات توفير النص المطبوع للقارىء العربي بكلفة اقل وبشيوع اوسع ، مع الحفاظ على القيمة التراثية الحضارية لرسم الحرف العربي .

وبهذه التجربة الجديدة ، الفذة ، وبعد شتى المحاولات ، المشبوهة منها او الساذجة ، لتشويه الحرف العربي ، او تغريبه بذلك تثبت مطاوعة لغتنا القومية واشكال كتابتها ، للتجدد ، والانسجام مع حضارات العصور ، وصولا الى عصرنا الحاضر .

ولعل من السذاجة ان نطرح هذه القضية الضخمة ، مجردة من العوامل الحضارية للغتنا القومية . ولعل من السذاجة ايضا اعتبار هذا التطوير الجديد للحرف العربي ، مسالة شكلية صرفا بالتالي .

ذلك ان لغتنا التي صارت ، من خلال كفاح الانسان العربي من اجل التقدم ، عبر كل العصور ، لغة حضارية بحيث استوعبت حضارة العرب القديمة التي كانت من الفخم الحضارات التي شهدها انسان هذه الارض ، قياسا الى الزمن الذي نشات وتضاعف تطورها، فيه ، هذه اللغة مرشحة دائما ، وعبر تجربتها ، للتوافق مع التطورات الحضارية في العالم . ومن ثم فان الشكلية الصرف تتهافت ، امام المحتوى التكنيكي لتجربة تجديد الحرف العربي هذه .

كما ان من ابدع ما احتوت عليه هذه التجربة ، ليس هو المحتوى التكنيكي المعاصر لعملية التجديد هذه ، بل ايضا الحفاظ على الاصول الفنية التراثية للحرف العربي ، والانطلاق من تلك الاصول نحو تحقيق جمالية اكبر له .

اجلالا لامتنا في معركتها من اجل التقدم الحضاري .

واعجابا بمبدع هذا الشكل الجديد ، الشاعر والفنان محمد سعيد الصكار ■■